الفصل الثالث:

البناء الفكري للمجتمع والأمة

مقدمة:

الهوية الفكرية يصح أن تكون وصفاً لأية جماعة صغيرة أو كبيرة، ويحدد هذا الوصف مجموع الأفكار التي يتبناها أفراد هذه الجماعة، وطرق التفكير التي يستعملونها، ومن ثم البنية الفكرية التي تتضمن منظومة المعتقدات والقيم وأنماط السلوك. وتتشكل هذه البنية من مصادر مختلفة، تعود إلى الموروث التاريخي، أو أساليب التنشئة التربوية والاجتماعية، أو التثقيف القسري للنظام السياسي، أو غير ذلك من الآثار.

نحاول في هذا الفصل الوقوف على بعض هذه العوامل التي تشكل الهوية الفكرية للفرد والمجتمع، ودور الفرد والنخبة في إبداع الفكر ودور البيئة المؤسسية في احتضان الفكر ورعايته وتسويقه، وفي بناء رأس المال الفكري للمجتمع والأمة، وموقع الأمة المسلمة في الريادة الفكرية.

أولاً: الهوية الفكرية

تحرص المجتمعات عادة على المحافظة على هويتها الفكرية والثقافية من خلال عدد من الأساليب والوسائل والإجراءات، منها:

- برامج التربية والتنشئة الأسرية التي يتعلم فيه الفرد اللغة الأم، وكثيراً من القيم والأعراف الاجتماعية.
- برامج التعليم العام التي يتعلم فيها الفرد أساسيات العلم والمعرفة عن تاريخ بلده، وجغرافيته، وأنظمته، والحقوق والواجبات التي يجب أن تقوم بين أفراد المجتمع وفئاته.
- مؤسسات المجتمع الرسمية أو الأهلية، التي يكون لها اهتمامات خاصة في مجال ثقافي أو سياسي أو اجتماعي، ولكنها مع ذلك تسهم في بناء الهوية الوطنية لأبناء المجتمع، بما فيها من عناصر فكرية وثقافية. ومن هذه المؤسسات على سبيل المثال: الأحزاب السياسية، والجمعيات والنقابات المهنية، والمنظمات الشبابية والرياضية، والمكتبات العامة، وغيرها.
- التشريعات والقوانين التي على الفرد أن يلتزم بها، بصورة تحقق تماسك المجتمع، وتحافظ على مصالحه، والعقوبات التي يمكن أن يتعرض لها الفرد إذا خالف هذه الأنظمة والقوانين.

مثل هذه الأساليب والوسائل تشترك في صياغة عقول الأفراد في المجتمع ونفسياتهم، وأنماط السلوك لديهم، بصورة تستطيع أن تميز هوية الفرد وانتماءه إلى مجتمعه. فالبناء الفكري لمجتمع ما يتحدد بمجموع الأفكار والمشاعر وأنماط السلوك المشتركة بين أفراد ذلك المجتمع، وتكون مختلفة عنها في مجتمع آخر، وبذلك يكون للمجتمع

الآخر بناء فكري آخر. وبقدر ما تشترك مجتمعات الأمة في أساليب التنشئة، وبرامج التعليم، وإقامة المؤسسات العامة والخاصة، وأنظمة الحياة، بقدر ما يتوحد بناؤها الفكري.

وعندما نتحدث عن الأمة الإسلامية في دلالاتها المحددة في القرآن الكريم والحديث النبوي والتراث الإسلامي، التي عرفت في تاريخها معاني الوحدة، والتماسك، والتكافل، والتناصر، ثم عرفت في واقعها المعاصر التمزق إلى دول ومجتمعات، وإلى طوائف ومذاهب، وإلى أعراق ولغات...، فإنَّ علينا أن نتخيل معنى البناء الفكري للأمة في حالتيها المشار إليهما.

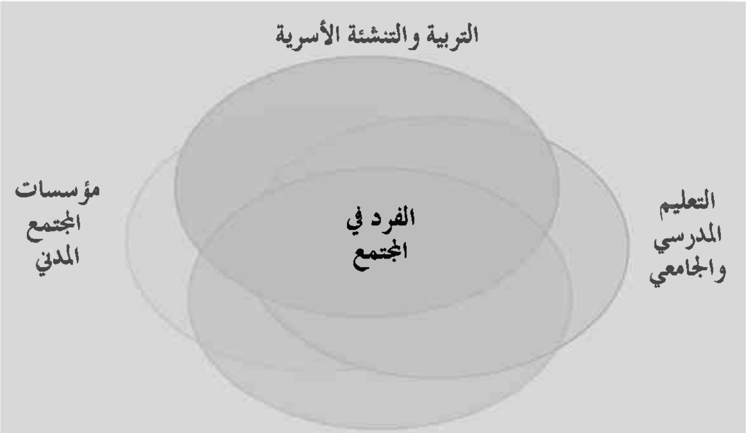

أساليب تحقيق التجانس في البناء الفكري في المجتمع

ثانياً: البناء الفكري بين الجمود والتّجدُّد

تتميّز بعض الحركات بأنها تبني مدارس فكرية تستمر بعد وفاة مؤسسها، وتضرب جذوراً عميقةً في واقع الفكر وواقع المجتمع، ثم تستقر المدرسة الفكرية فترة طويلة دون تجدّد يُذكر. وعلى ما في هذه الأفكار الأولى التي تكونت على أساسها المدرسة الفكرية من تميّز وإبداع، وعلى ما اتصفت به القيادة التي كوَّنَتْها من عبقرية في البناء، فإنّ الجمود على تلك الأفكار الأولى قد لا يكون صفة إيجابية. إن ذلك لا يعني إنكار فضل المؤسس، والتهاون في الاعتراف بعبقريته في صياغة أفكار الحركة، بحيث ترتبط بهوية المجتمع وانتمائه الفكري ارتباطاً وثيقاً، أو لعبقريته في صياغة تنظيم الحركة في صورة أفكار صالحة للتبنّي وقابلة للبقاء.

إنّ التغيّر حقيقة من حقائق الكون، فساعة الزمن في هذه الحياة الدنيا، لا تتوقف عقاربها. ويكفي أن يكون مرور الوقت عاملاً أساسياً في تغير الأشياء والأشخاص والأفكار، ذلك أن الإنسان بمرور الوقت ينمو ويكتسب خبرات جديدة، فيزداد في العلم، ويتطور في التجربة، وهو في ذلك يتذكر أموراً وينسى أخرى. لذلك لا نتخيل معنىً للجمود في فكر الإنسان على وجه الحقيقة. ومع ذلك يكثر الحديث عن الحاجة إلى التجدد والتجديد، ويتجدد الحديث عن الانفتاح والانغلاق في كل مناسبة للحديث عن الفكر الإسلامي،

فماذا يعنىٰ ذلك؟

إنّ للتجديد تمثّلات متعددة، فمنه اجتهاد جديد في فهم نص، أو تنزيل النص علىٰ الواقع؛ ومنه انتقال بالفكر الإسلامي من معالجة المسائل الجزئية في حياة الأفراد والمجتمعات إلىٰ الانشغال بالقضايا الكلية والمسائل العامة للأمة والبشرية؛ ومنه توظيف الوسائل والأدوات التي تستجد في واقع المجتمع الإنساني في تعميم المعرفة بالدين، والتبشير به والدفاع عنه، ومنه تطوير المفاهيم وتنظيم الأفكار ضمن ضوابط منهجية تحدُّ من الفوضىٰ الفكرية، وتوفر إطاراً مرجعياً للحركة الحرة داخل هذا الإطار، دون انفلات من ثوابت الدين ومقاصده في تحقيق مصالح الأمة. وهكذا.

وصور التجدد والانفتاح في الفكر محمودة منشودة، ويميل الناس إلىٰ ادعائها، حتىٰ لو لم تكن موجودة فيهم، والحديث عنها سهل ميسور، وهو أصعب من الحديث عن صور الجمود والانغلاق التي يميل الناس إلىٰ ذمّها والتبرؤ منها، علىٰ الرغم من أنهم قد يكونون واقعين فيها. وعلىٰ كل حال فالتجدد أمر نسبي، وليس صفة مطلقة، فهو نسبة إلىٰ المستوىٰ الذي يطلبه الإسلام، أو نسبة إلىٰ ما يتوافر من إمكانات التعلم والتجدد، أو نسبة إلىٰ ما يتوفر من انفتاح وتجدد عن الآخرين. وفي المقابل فإنَّ الثبات علىٰ ما صح من أفكار ومبادئ صفة مطلوبة لا تتناقض مع اتجاه التجدد مع الثبات علىٰ

المبادئ والكليات والمرجعيات العامة. ولعلَّ الحقّ أن يكون في الاحتفاظ بالتوازن بين الثبات على الأفكار المبدئية من جهة، والتجدد في مسوغات هذا الثبات، وضرورته، وتجديد فهمه، والتعبير عنه، من جهة أخرى.

وعلى من يأمُل في اكتساب بناء فكري محدد أن يُبقي المجال مفتوحاً للنمو والتجدد، وأن يختبر اليوم ما كان عليه بالأمس، وينظر إلى بنائه الفكري، ليلتمس ما أضافه إليه من جديد وما أجرى عليه من تطوير، نتيجة لما سمعه أو قرأه أو مر به من خبرات وتجارب.

ثالثاً: تسويق الأفكار

التسويق علم له مفاهيم ومبادئ ونظريات، وله كتب أكاديمية ومهنية، وله برامج وتطبيقات في تسويق السلع والبضائع والخدمات. وقد انتقلت فكرة تشبيه نشر الأفكار بعملية تسويق الأشياء من خلال القيمة العلمية التي يمكن أن تبنى عليها إجراءات في التطوير والتصنيع يكون لها عائد ماديّ. ومن هنا جاءت فكرة براءات الاختراع، لتسجل حقوق صاحب الفكرة، والإفادة مما قد يظهر لها من تطبيقات عملية في سوق الأشياء أو الخدمات. ومن هنا جاءت كذلك فكرة الملكية الفكرية، وجاءت فكرة اقتصاد المعرفة... إلخ.

إنّ قيمة ما يمتلكه الفرد من أفكار لا تظهر ما دامت حبيسة لدى صاحبها، وإنما تظهر قيمة الأفكار عندما تنتشر وتشيع، وتصبح

عنصراً مهماً في ثقافة المجتمع، أو رأياً عاماً في السياسة، أو ممارسة معينة في الاستهلاك ...إلخ. ومصطلح تسويق الأفكار ليس بعيداً في دلالته عن مصطلحات عديدة أخرى، مثل التربية والتنشئة والنشر، والاتصال والدعاية وغسيل الأدمغة، وبرمجة العقول، والغزو الفكري، ... إلخ. المهم أن مصطلح تسويق الأفكار يؤكد على القيمة العملية والفائدة المرجوة من الأفكار المراد نشرها أو تسويقها.

وهل عمليات التعليم والتدريس إلا نقلُ أفكار؟!

وهل ما يدور في أجهزة الإعلام المرئي، والمسموع، والمقروء، إلا محاولات لنشر أفكار صحيحة أو سقيمة؟!

أليست الجهود التي يبذلها المصلحون والدعاة من أجل تغيير الواقع، وحل مشكلاته هي في الأساس مبادرات فكرية؟!

بم يملك القادة في أي قطاع من فعاليات المجتمع قدرتهم على القيادة التي يؤثرون بها في عقول الناس وقلوبهم، إن لم يكن ذلك بما يطورونه من أفكار، وما يقومون به من أفعال على أساس هذه الأفكار؟!

كيف تعرف أنك تملك أفكاراً عظيمة إذا لم تتحدث هذه الأفكار عن نفسها بفعلك وسلوكك؟ وإذا لم تتحدث أنت عنها بلسانك وقلمك؟

هذه التساؤلات تقود إلىٰ حقيقة لا خلاف عليها، وهي أن قيمة الأفكار -أيا كانت قيمتها- إنما تكون في انتقالها من المنشئ إلىٰ المتلقي، وفي حركتها في اتجاه الفعل والتأثير.

رابعاً: حاجة الأمة إلىٰ القيادة العلمية والفكرية

١ - القيادة الفكرية للأمة:

الأمة الإسلامية حاملة الرسالة الإلهية الخاتمة، ووريثة القيادة النبوية الراشدة، ومصادر هذه الرسالة محفوظة لم يطرأ عليها التحريف والتبديل، والله سبحانه قد كلّف هذه الأمة أن تتسنم مهمة القيادة الفكرية للأمم الأخرىٰ، فكانت بأمر الله في موقع الشهادة علىٰ الناس، تقدّم لهم الهداية وتكون لهم أسوة وقدوة في اتباع الهدىٰ وبذله وتعليمه. وقد أدت الأمة هذه المهمة بكفاءة لم تقدمها من قبل أمة أخرىٰ من أتباع الأنبياء السابقين، فأقامت مجتمع الهدىٰ والخير والعدل، وكانت قبلة العلم والتقدم، يأتي إلىٰ مؤسساتها ومعاهدها الراغبون في التعلم فينهلوا منها العلم في مجالاته المختلفة، والقيم في مستوياتها المتعددة، وأنماط السلوك الحضاري في صور الإدارة والتنظيم وأصول التعامل الاجتماعي. والله سبحانه يودّ لهذه الأمة أن تستعيد هذه القيادة، وإلا فإن الله سوف يستبدل بها أمة أخرىٰ.

٢ - قيادات فكرية متخصصة:

وقد تميزت من داخل الأمة المسلمة قيادات متخصصة في كل

مجال من مجالات القيادة، كان أبرزها مجال العلوم والمعارف والأفكار. ففي وقت مبكر ظهر الحرص على حفظ تراث النبوة، وذلك بتدوين الحديث النبوي الشريف، والسيرة النبوية، ونبغت في ذلك قيادات من الحفاظ والرواة والمدونين والمحققين والمدققين، وتشكلت من ذلك علوم لم تعرفها الأمم السابقة منها علوم الرواية والدراية ومصطلح الحديث، والجرح والتعديل، والعلل. ودوِّنت هذه العلوم، وأصبحت كتبها أصولاً ومراجع ومصادر، لكل ما جاء بعدها من تطور ونبوغ. كما تشكّلت قيادات فكرية وعلمية أخرى في الفقه تمثلت في المدارس الفكرية التي سميت بالمذاهب، وقيادات أخرى في التفسير والعقيدة والتصوف، والطب، والفلك والبصريات والكيمياء والفلاحة. وكلها قيادات معروفة للباحثين والمؤرخين حتى عند الغربيين.

٣- المؤسسات والقيادة الفكرية :

كان المسجد في بداية الأمر هو المؤسسة التي تنمو فيها كفاءات العلماء وخبراتهم، واتسعت مهام المسجد ليكون أشبه بالجامعات المعاصرة؛ فكان منها جامع الزيتونة في تونس، وجامع القرويين في فاس، والجامع الأزهر في مصر. ومع ذلك فقد أنشأ المجتمع الإسلامي مؤسسات تعليمية متخصصة للتدريس والتدريب والتبحر في مجالات العلوم المتخصصة، منها المدارس، والمراصد الفلكية، والمشافي الطبية أو البيمارستانيات، والمكتبات العامة، لتخزين الكتب

ونسخها وترجمتها، مثل بيت الحكمة في بغداد ودار الحكمة في القاهرة.

٤ - النّخب الفكرية أساس نهضة أوروبا:

عرفت أوروبا ما وصل إليه التقدم في العالم الإسلامي، لا سيما عن طريق الوفود الدبلوماسية التي كان ملوك أوروبا يرسلونها إلىٰ بلاط الخلفاء المسلمين، وعن طريق الاتصال المباشر في الأندلس وصقلية، ثم في فترة الحروب الصليبية، فأخذوا الملوك الأوروبيون يرسلون وفوداً من المتعلمين لنقل الخبرة والثقافة والعلم، فبدأت تتشكل في أوروبا اعتباراً من القرن الثاني عشر الميلادي قيادات فكرية في مجالات العلوم المختلفة، وبدأت هذه القيادات تشكل نخباً ومدارس فكرية ومؤسسات تعليمية حفلت بالراغبين في نقل حالة شعوبهم من التخلف الذي كان يسود أوروبا في جميع المجالات. وقد أسهم كل ذلك في النهوض والتقدم الأوروبي.

٥ - الإبداع الفردي أساس القيادة الفكرية:

كل عالم من هؤلاء العلماء في التخصصات المختلفة يمثل في زمانه ومكانه قيادة فكرية، وكان أهل الاختصاص في كل علم يمثلون نخباً من القيادات الفكرية في كل تخصص، ومع ما للجماعة والمؤسسة والمجتمع بأكمله من دور في تحديد موقع الفكر في قيادة المجتمع، فإننا لا نستطيع تجاهل دور الفرد في الإبداع العلمي والفكري. ذلك أنّ الفكر أقرب إلىٰ الرؤىٰ الإبداعية، التجديدية، أو الثورية، التي

يصوغها المفكر الفرد في الأساس،[1] فمنهج العلم هنا ولّد أفكاراً أصبحت فيما بعد جزءاً من موضوع العلم. ومع ذلك يبقى المجال مفتوحاً لحركة النمو والتطوير والمراجعة في كل علم، كلما أعمل عالمٌ فكرَه، وولدّ الجديد من الفكر العلمي في تخصصه. لكن الإنجاز في الفكر البشري لا يقتصر على مجال واحد من مجالات العلوم المتخصصة المعروفة الأمر الذي يقتضي تعاون العلماء فيما بينهم، فبعض المسائل هي موضوعات بَيْنِيَّة التخصص، أو عابرة للتخصصات أو متعددة التخصصات أو حتى فيما وراء التخصص.

٦- الجامعة في موقع القيادة الفكرية:

حصل تطور كبير على مفهوم الجامعة ومهمتها في المجتمع الإنساني، عبر التاريخ. واستقر وضعها الآن على أنها مؤسسة مهمة

---

(١) يمكن للقارئ أن يزور موقع جائزة نوبل ليتعرف على أن معظم الفائزين هم أفراد، وحتى عندما تمنح الجائزة لاثنين أو أكثر، فإن ذلك يكون لاستحقاق كل عالم للجائزة فتقسم الجائزة على المستحقين. انظر ملحق جائزة نوبل في الكيمياء في الرابط:

- http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D9%84%D8%AD%D9%82:%D8%AC%D8%A7%D8%A6%D8%B2%D8%A9_%D9%86%D9%88%D8%A8%D9%84_%D9%81%D9%8A_%D8%A7%D9%84%D9%83%D9%8A%D9%85%D9%8A%D8%A7%D8%A1

أما في الآداب فقد منحت الجائزة في ١٠١ مرة لفائز منفرد، و٤ مرات لفائزين اثنين، وحجبت الجائزة في سبع مرات. انظر الرابط:

- http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D9%84%D8%AD%D9%82:%D8%AC%D8%A7%D8%A6%D8%B2%D8%A9_%D9%86%D9%88%D8%A8%D9%84_%D9%81%D9%8A_%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%AF%D8%A8

من مؤسسات المجتمع الحديث تقوم بثلاث مهمات أساسية هي: التعليم، والبحث العلمي، وخدمة المجتمع. وهي في موقع القيادة في هذه المهمات الثلاث.

ثم إن أعضاء هيئة التدريس في الجامعات هم أعضاء في أسرهم وعائلاتهم وأحيائهم السكنية، فهم بذلك في مقام من يملك الحكمة في التعامل مع الآخرين، وهم أعضاء في النوادي الرياضية والاجتماعية والجمعيات التطوعية، والأحزاب السياسية. لذلك تتوجه إليهم الأنظار لتقديم ما يملكون من خبرة ودراية، في فهم الأحداث التي تطرأ، وفي التعامل الحكيم في المناسبات المختلفة، وهي مهمات قيادية قد لا يختارها الأستاذ الجامعي ولا يسعى لها، لكنّ المجتمع من حوله يتوقعها فيه ويطلبها منه.

وأخيراً، فإنَّ من بين أعضاء هيئة التدريس من يعتصر خبرته وتجربته في العمل، وفي الحياة، لتأليف كتب يقدمون فيها لعامة القراء فهمهم لموضوعات محددة، يوظفون فيه تخصصهم العلمي، أو رؤيتهم الكلية لموضوعات عامة تتقاطع فيها المعرفة التخصصية، والخبرة العملية، والبصيرة الشخصية، وتتضمن اجتهادات فكرية ربما تمثل تأصيلاً لتوجهات محددة في السياسات العامة في المجتمع، أو استشرافاً لمستقبل منشود لهذه السياسات.

وهكذا فإنّ صور القيادة التي تحتلها الجامعة في المجتمع تتجاوز الصور التقليدية من الأداء المحدد لوظيفة الأستاذ الجامعي ومتطلباتها

المألوفة، وإنما هي قيادة في مجالات مفتوحة الآفاق تتطلب من الجامعة، ومن الأستاذ الجامعي رؤية استشرافية، وإنتاجاً فكرياً علىٰ درجة عالية من الأهمية.

٧- رأس المال الفكري:

مصطلح رأس المال الفكري دخل إلىٰ عِلْمَيّ الاقتصاد (التنمية الاقتصادية)، والإدارة (التطوير الإداري) في الربع الأخير من القرن العشرين، وذلك حين ميّز الباحثون هذا المصطلح عن مصطلحات كانت أكثر استعمالاً، مثل رأس المال الطبيعي الذي يختص بالموارد، ورأس المال المادي الذي يهتم بالنقد والموجودات الثابتة، ورأس المال الاجتماعي الذي يختص بالعلاقات والشبكات الاجتماعية، ورأس المال البشري الذي يهتم بالطاقات والخبرات والمهارات التي يملكها الأشخاص. ثم أصبح الجزء المهم من رأس المال البشري هو رأس المال الفكري، الذي يتمثل في نخبة من العاملين في المؤسسة الذين يمتلكون قدرات معرفية وتنظيمية، ويتمكنون بها من إنتاج أفكار جديدة، أو تطوير الأفكار القديمة بهدف اغتنام الفرص. ذلك أن العلم والعقل والمعرفة أصبحت الأساس الأكثر قيمة في القوىٰ المتنافسة.[1]

وإذا كان رأس المال الفكري هو الذي يفسح المجال لشركة، أو مجتمع، أو أمة، أن تتقدم وتتفوق، فإنَّ من المهم أن يكون رأس المال

---

(١) المفرجي، عادل حرحوش. وصالح، أحمد علي. **رأس المال الفكري؛ طرق قياسه وأساليب المحافظة عليه**، القاهرة: المنظمة العربية للتنمية الإدارية، ٢٠٠٣م، ص٨-١٨.

هذا عنصراً متجدداً يوفر استمرار التقدم والتفوق. وإذا جاز لنا أن نتقل المصطلح لنصف ما يمكن أن تمتلكه الأمة الإسلامية وتتميّز به، فإننا نتساءل هل تملك الأمة الإسلامية رأس مال فكرياً يجعلها غنية فكرياً ومن ثم ثقافياً وحضارياً، ويضعها في موقع التقدم والتفوق، ويوفر لها ضمان الاستمرار في هذا الموقع؟!

لقد تحقق التفوق والتقدم لهذه الأمة كلما اهتدت بهداية القرآن والسنة، وتخلّفت عن التقدم والتفوق كلما أعرضت عن تلك الهداية. فرأس مال الأمة المتجدد العطاء هو هذا القرآن الكريم، وتطبيقاته النبوية، والعلوم الغزيرة التي دارت حولها. لكن رأس المال الفكري هذا ليس شيئاً مضى وانقضى، وإنما هو الإطار المرجعي المهيمن الذي يدفع إلى تطوير الأفكار المتجددة، ويحفز على استمرار الإبداع والابتكار والاكتشاف، ويعلي من روح التجديد والاجتهاد في كل العلوم الأخرى: الطبيعة، والاجتماعية، والنفسية.

وما لم يكن رأس المال الفكري هذا موضع الفعل والتأثير، فلن يكون لأي شكل من أشكال رأس المال الأخرى ما يحقق للأمة تقدماً أو تفوقاً.